الفصل الثانى

الإسلام فى أوروبا بين منصفيه والحاقدين عليه

ينقسم الوضع بهذا الاعتبار « الإسلام فى أوروبا » ثلاثة أقسام : منصفون . وحاقدون ، ومحايدون لا على الإسلام ولا للإسلام ، وبالطبع فإن الذى يهمنا هو المصنفون والحاقدون . وعلى هذا ندير الحديث .

● منصفو الإسلام فى أوروبا [1] :

ممن درس الإسلام فى الغرب طائفة من العلماء والمفكرين غلبت عليهم روح النزاهة والموضوعية فى البحث ، ولم يتأثروا بالعواطف الخاصة التى تربطهم بمعتقداتهم المخالفة للإسلام ، وثقافاتهم المتحررة من كثير من القيود ، وقد تركت دراستهم للإسلام آثاراً ناصعة فى نفوسهم فلم يمنعهم مانع من تسجيلها والإفصاح عنها والإشادة بها . ثم تركوا ما قالوه فى الإسلام يُقرأ فى مؤلفاتهم بلغاتهم الأصلية أو فى الترجمات إلى اللغات الأخرى . ومن أبرزها اللغة العربية فى هذا المجال . بفضل الجهود التى بذلها بعض المسلمين فى نقل مؤلفاتهم إلى اللغة العربية .

ومما هو جديد بالذكر أن تناولهم للإسلام لم يكن من جهة واحدة بل تناولوه من عدة جهات كما سيتضح من العرض الآتى :

---

(١) لا نقصد بأوروبا هنا التحديد الجغرافى للكلمة ؛ بل نقصد بها خصوم الإسلام فى الغرب كله والشرق المتصل به .

● عظمة صاحب الدعوة :

حياة النبى ﷺ وأعماله لفتت أنظار مفكرى العالَم لفتاً قوياً . ومنهم الفيلسوف الإنجليزى برنارد شو . فقد أشاد أيما إشادة بعظمة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك قوله :

« إن العالَم هو أحوج ما يكون إلى رجل فى تفكير محمد (ﷺ) هذا النبى الذى أحلَّ دينه محل الاحترام والإجلال . إنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، خالد خلود الأبد . وإنى أرى كثيراً من بنى قومى (الأوروبيين) قد دخلوا فى (هذا) الدين على بيِّنة . وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح فى هذه القارة (أوروبا) وإذا أراد العالَم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين . إنه دين السلام والعدالة والسعادة فى ظل شريعة محكمة ، لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطىء أبداً .

إن محمداً (ﷺ) يجب أن يُدعَى منقذ الإنسانية ، إننى أعتقد لو تولى رجل مثله زعامة العالَم الحديث لحل مشاكله بطريقة تجلب للعالَم السلام والسعادة . إن محمداً هو أكمل البَشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يُتصور وجود مثله فى الآتين » .

هذه كلمة حق قالها رجل غير مسلم فى الإشادة برسول الإسلام ومحاسن الإسلام نفسه . كلمة صوِّرت فى صدق مشاعر قائلها نحو عظمة الإسلام وكل ما يتصل به .

* *

● إدوارد بروى :

ويتناول رجل آخر الحديث عن الإسلام مصوِّراً روعة ماضيه وأثره فى الحضارة الإنسانية المعاصرة ، وينحى باللائمة على الذين ينقصون من قيمة الإسلام وتاريخه ، ويضعونه موضعاً سلبياً بين وقائع التاريخ ، ويتناول أموراً أخرى من

مآثر الإسلام الخالدة ، ثم يطالب فى النهاية باعتبار التاريخ الإسلامى الحافل تاريخاً خالداً للبَشرية كلها .

ذلكم الرجل هو البروفسور « إدوار بروى » أستاذ تاريخ الحضارات فى جامعة السربون بباريس . وإليك قوله :

« ظهر الإسلام كالشهاب الساطع ، فحيَّر العقول بفتوحاته السريعة وباتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التى أنشأها . نحن أمام شعب كان بالأمس الغابر مجهول الاسم ... فإذا هو يتحد فى بوتقة الإسلام ، الذى انطلق من الجزيرة العربية فاكتسحت جيوشه فى بضع سنوات الدولة الساسانية (الفُرس) ... ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية (الروم) من آسيا وإفريقيا . ولم تلبث جيوشه قليلاً حتى استولت على معظم أسبانيا وصقلية . واقتطعت بعض المقاطعات غربى أوروبا وجنوبها . ودقت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربى .

وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربى - يعنى الإسلامى - وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبَّات سبحة انفرط عقدها النظيم (؟) وهذه الأديان التى سيطرت على الشعوب والأقوام ... ذابت كما يذوب الشمع أمام النار ، بعد أن أطل على الدنيا دين جديد (الإسلام) ... وانجلى غبار الفتح عن إمبراطورية جديدة (الدولة الإسلامية) ولا أوسع . وعن مدينة ولا أروع ، عوَّل [1] عليه الغرب فى تطوره الصاعد ورقيه البنَّاء ، بعد أن نفخ الإسلام فى جسم موات روحاً جديدة عادت معه إلى الحياة فنبض - يعنى الغرب - وأشع وأسرى ولهذه الأسباب كان لا بد أن يحتل التاريخ الإسلامى محلاً مرموقاً فى ثقافة رجل العصر .

... وعلى رجل العصر أن يعرف جيداً أنه قبل « توما الإكوينى » الذى رأى النور فى إيطاليا ظهر « ابن سينا » فى إحدى مقاطعات التركستان ، وأن

---

(١) أى : على الإسلام - الذى هو الدين الجديد - كما وردت الإشارة إليه هنا .

مساجد دمشق وبغداد وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتردام فى باريس . إن علينا اعتبار هذا التاريخ - تاريخ الإسلام - من صميم التاريخ الإنسانى ، المتنوع فى الأزمنة والأمكنة ، والذى لا يزال - على الرغم من جزئياته وخصائصه - تاريخ هذه البَشرية الجامعة جمعاء » [1] .

هذا تقرير واف عن جوانب جد مضيئة من حقيقة الإسلام . واعتراف صريح من رجل متخصص فى علم التاريخ والحضارات الإنسانية ، دوّن مشاعره عن الإسلام بروح خالية من أدنى أثر للتعصب المذهبى كما ترى .

* *

● تولستوى :

ويسجل الأديب الروسى « تولستوى » كلمة يتخذ من صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم محوراً لها ، ولكنه يتناول فيها محاسن الإسلام نفسه ، ويدرك عن كثب سمة من سمات عالَمية الإسلام فيقول :

« ولد نبى الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين ، وكان فى حداثة سنه راعياً يميل إلى العزلة والانفراد فى البرارى والصحارى ، متأملاً فى اللّه خالق الكون ، لقد عبد العرب المعاصرون له أرباباً كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها ، واسترضائها ، وأقاموا لها العبادات ، وقدّموا لها الضحايا المختلفة . وكان كلما تقدّم به العمر ازداد اعتقاداً بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الناس والشعوب .

« وقد ازداد إيمان محمد (ﷺ) بهذه الفكرة فقام يدعو أهله وأمته إلى فكرته . معلناً أن اللّه اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة . ودأب يعلن عن عقيدته وديانته . وخلاصة هذه الديانة التى

---

(١) تاريخ الحضارات العام - المجلد الثالث ، للبروفسور إدوار بروى ص ١٠٩ ، وأثر العلماء والمسلمين فى الحضارة الأوروبية ، للأستاذ أحمد على الملا ص ١٣ .

نادى بها الرسول ، هى : أن اللّه واحد لا إله إلا هو ، ولذلك لا يجوز عبادة غيره . وبأن اللّه عادل ورحيم بعباده ... وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده فإن اللّه يثيبه فى الحياة الآخرة أجراً حسناً . وإذا خالف شريعة اللّه وسار على هواه فإنه يُعاقَب فى الآخرة عقاباً أليماً . وأن اللّه تعالى يأمر الناس بمحبته ، ومحبة بعضهم بعضاً ... ومحبة اللّه تكون بالصلاة . ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السرّاء والضرّاء ، وأن الذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر يجب عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد عن الملذات الدنيوية ، ويحتم عليهم ألا يخدموا الجسد فحسب ويعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها » .

*

● سماحة الإسلام وعالَميته [1] :

« ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبى اللّه الوحيد . بل اعتقد أيضاً بنبوة موسى وعيسى وقال : إن اليهود والنصارى لا يُكْرَهون على ترك دينهم - يعنى أن الإسلام أقر لهم بحرية الاعتقاد - ... وقد امتاز المسلمون كثيراً عن الغرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا . وحب العمل والقناعة ، وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم . ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراماً عظيماً . ويُعظِّمون قدرهم . وظل عدد المؤمنين يزداد يوماً بعد يوم .

ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيراً بغير المسلمين ، وأمر بحسن معاملتهم . ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم .

---

(١) وضعنا هذا العنوان من عندنا لأن كلام المؤلف يوحى بهذا المعنى .

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ويكفيه فخراً أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم . وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام » [1] .

* *

● دولة فى الأرض وأخرى فى السماء :

هكذا انتهى الفيلسوف الفرنسى لامارتين وهو يتحدث عن عظمة الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ونضع أمام القارىء نصه بالحرف :

« إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله ، وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته . ورباطه جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية ، إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن ليضمر لأحد أذىً ، أو يعيش على باطل . فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرِّع ، وهادٍ للإنسان إلى العقل وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللُّب ، وهو مؤسس دين لا فِرية فيه ، ولا جبروت فيه . ومنشىء عشرين دولة فى الأرض وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك ؟ وأى آفاق بلغ إنسان من مراتب الكمال ما بلغ محمد » ؟

* * *

● ديورانت :

الملحوظ فى النصوص التى نقلناها عن المنصفين من مفكرى الغرب وعلمائه أن حديثهم عن الإسلام جاء فى إطار الحديث عن عظمة صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم . فهو المفتاح الجذّاب الذى وقفهم على حقائق الإسلام وفى هذا

---

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٠٦ ، مرجع سبق ذكره .

الإطار نجد عالماً آخر ذائع الصيت ينحو المنحى نفسه ، وهو « ول ديورانت» صاحب المؤلفات العالَمية العديدة : « قصة الحضارة » ، « قصة الفلسفة » وإليك نص كلمته :

« وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا إن محمداً (ﷺ) كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى فى شعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو ، وجدب الصحراء . وقد نجح فى تحقيق هذا الهدف نجاحاً لم يدانه فيه أى قائد آخر فى التاريخ كله » [1] .

* * *

● الإشادة بالمسلمين :

ونحن الآن أمام مجموعة أخرى من شهادات المنصفين غير ما تقدَّم إذ يتجه بها أصحابها اتجاهاً آخر ، فيولون وجوههم شطر تاريخ الإسلام من حيث جهود علماء المسلمين وإسهاماتهم البنَّاءة فى النمو الحضارى الإنسانى ، والمُثل العليا التى ضربوها فى هذه المجالات ، مسجِّلين أن حضارة الإسلام كانت أسبق الحضارات الإنسانية . وأن الرعيل الأول من المسلمين ، وتابعيهم ، كانوا - بحق - أساتذة العالَم المتحضر . والشهادات فى ذلك كثيرة ومتنوعة يضيق بنا المقام لو حاولنا رصدها بمجرد الإشارة إليها . لذلك سوف نسلك - هنا - مسلك التمثيل . وذلك من خلال محورين :

أحدهما : أقوال وشهادات موجزة أدلى بها قائلوها فى مؤتمرات أو محاضرات .

والأخر : ما دوَّنه بعضهم فى كتب وأطنبوا فى الإشادة بفضل المسلمين على العالَم .

---

(١) قصة الحضارة : ٤٧/٢ - المجلد الرابع - « عصر الإيمان » .

● نهرو وأسبقية حضارة الإسلام :

وضع البنديت جواهر لال نهرو كتاباً دعاه « لمحات من تاريخ العالَم » تحدَّث فيه - فيما تحدَّث - عن فضل المسلمين فقال :

« .. كانوا - بحق - آباء العالَم الحديث . وإن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية - عدا قرطبة عاصمة أسبانيا العربية - يقصد الإسلامية - وإنه كان لا بد من وجود : ابن الهيثم ، وابن سينا ، والخوارزمى ، والبيرونى لكى يظهر (يعنى فى الغرب) جاليليو وكبلر وكوبرنيق ونيوتن » .

إن مغزى شهادة نهرو - هنا - أن حضارة الإسلام سبقت حضارة الغرب الحديثة . وأن حضارة الغرب لم تكن لتقوم لولا اعتمادها على الحضارة الإسلامية . وهذا الذى يقوله نهرو قد تكررت الشهادة به من علماء الغرب أنفسهم ، وصار هو الاعتقاد السائد وإن طمسته روح الحقد والعصبية أحياناً . وبخاصة فى العصر الحاضر لعوامل لا تخفى على أحد .

* *

● دورمنجم :

ويقول الأستاذ « دورمنجم » فى كتابه « القيم الخالدة فى الإسلام » ما نصه : « إن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعى يقوم على أسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادى يعتبر المال وسيلة لا غاية ، ويحترم المِلْكية الفردية غير المستغلة ، وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعرفة . ولا شك أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية » .

لقد لخص « دورمنجم » أسس الحضارة الإسلامية تلخيصاً أميناً كما ترى . فارقاً بينها - ضمنياً - وبين الحضارات المادية المدمرة ، فالفرق جَدُ كبير بين حضارة تقوم على القهر للآخرين والكفر بالقيم كحضارات الغرب المعاصرة ، وبين حضارة تسعى لتحقيق الخير للإنسان والإيمان بخالق الكون .

* * *

● اعتراف بالجميل :

ونضع بين يدى القارىء نموذجين للاعتراف بالجميل قبل الانتقال لعرض شهادة مستفيضة فى فضل الإسلام وحضارته على العالَم أجمع ؛ أحد هذين النموذجين فقرات وجيزة جاءت فى خطاب ألقاه « الدكتور غريسيب » مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها مشاركة فى احتفال أقامه الطلاَّب المسلمون بألمانيا الغربية بمناسبة المولد النبوى الشريف منذ أكثر من نصف قرن . ودعوا إليه « الدكتور غريسيب » فكان مما قال :

« أيها الطلاَّب المسلمون .. والآن قد انعكس الأمر . فنحن الأوروبيين يجب أن نؤدى ما علينا تجاهكم . فما هذه العلوم إلا امتداداً لعلوم آبائكم ، وشرحاً لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا - أيها الطلبة - تاريخكم ، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر ، ما دام كتابكم المقدَّس - عنوان نهضتكم - ما يزال موجوداً بينكم ، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم .

فارجعوا إلى الماضى لتؤسسوا للمستقبل . ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور ومعرفة ، وسلام عليكم يا طلاَّبنا - اليوم - وإن كنا بالأمس طلاَّبكم » [1] .

فانظر إلى الحقائق التى اهتدى إليها الرجل الواعى المنصف ويكفيه - ويكفينا معه - أن أرجع روعة الحضارة الإسلامية إلى الكتاب والسُنَّة . واعترف - طائعاً مختاراً - أن القرآن هو عنوان التحضر الإسلامى الخالد .

وفى عام ١٩٥٣ انعقد بواشنطن مؤتمر كان موضوعه : « أثر الإسلام الثقافى فى المسيحية » .

وقد ألقى الأستاذ الدكتور « كويلويونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة « برنستون » ورئيس قسم اللغات الشرقية بها محاضرة فى ذلك المؤتمر جاء فيها :

---

(١) أثر علماء المسلمين ص ١٤٢ - مرجع سبق ذكره .

« وبعد .. فهذا عرض تاريخى موجز ، قُصِدَ به التذكير بالدَّيْن - بفتح الدال المشددة - الثقافى الذى ندين به للإسلام ، منذ أن كنا - نحن المسيحيين - داخل هذه الألف السنة ، نسافر إلى العواصم الإسلامية ، وإلى المعلمين ، ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية ... ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدَّيْنا ما علينا بربحه ، ولكن سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا عن حب ، واعتراف بالجميل » .

هذه مواقف سريعة ونبيلة لأولئك الرجال المنصفين من علماء الغرب ومفكريه . ولو كانت قد ظلت تلك الروح هى العلاقة السائدة بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى لتغيَّر وجه التاريخ .

* * *

● جورج سارتون وحقائق مذهلة :

نختم هذا الفرع - منصفو الإسلام فى أوروبا - بحقائق مذهلة عن الإسلام وحضارته ومفكريه وعلمائه فى شتَّى ميادين العلم والمعرفة سجَّلها ودوَّنها الأستاذ الدكتور « جورج سارتون » بما لا يُعرف له نظير فى التاريخ المعاصر .

● من هو جورج سارتون ؟

وقبل الخوض فى الموضوع نعرِّف القارىء بالأستاذ الدكتور « جورج سارتون » الذى سنعرف لشهادته بعد قليل .

« جورج سارتون » بلچيكى الأصل والمولد ، حصل على الدكتوراة من جامعة « چان » البلچيكية عام ١٩١١ . واشتغل بعد حصوله على الدكتوراة بالعلم والحضارة . فحاضَرَ فى بلچيكا وإنجلترا ورحل عام ١٩١٥ إلى الولايات المتحدة الأمريكية . يُحاضِر وينشىء جيلاً من الباحثين ، ويُسهم فى تأسيس المجلات العلمية الدولية . وكان قرَّاءً نهماً . وأهلته منزلته العلمية ليكون رئيساً للاتحاد

الدولى لتاريخ العلوم . ثم رئيساً شرفياً لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية . وكان نزيهاً فى البحث إلى أبعد مدى [١] .

*

● عمل جورج سارتون :

قام « جورج سارتون » بوضع كتاب دعاه « مقدمة لتاريخ العلم » تتبع فيه نشأة الحضارة الإنسانية من عهد « هوميروس » إلى آخر القرن الثالث عشر بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وكان منهجه أنه يقسِّم القرن الواحد قسمين ، كل قسم مقداره خمسون سنة . ويُطلق على كل نصف قرن اسم أشهر العلماء الذين عُرِفوا فيه .

وقد أبرز دور الحضارة الإسلامية طوال سبعة قرون ، ثم أكد من خلال التتبع الواعى لنمو الحضارة أن العلماء المسلمين - عرب وغير عرب - كانوا أساتذة العالَم أجمع طوال تلك القرون السبعة التى تبتدىء بالقرن السابع ، وتنتهى بالقرن الثالث عشر . وحرص المؤلف كل الحرص على أن يُطلق على كل نصف قرن منها اسم أعظم عالِم وُجِدَ فيه . وأحياناً كان يتوقف طويلاً عند اختيار مَنْ يُسمِّى نصف قرن باسمه لنبوغ أكثر من عالِم فيه .

وعند نسبة أى نصف قرن لعالِم إسلامى كان يشير إلى منزلته وميادين المعرفة التى نبغ فيها ، ثم إلى تقريظ علماء الغرب له إن وجد .

وليس معنى هذا أن الجهود العلمية فى هذه الحقبة جَفَّت ينابيعها عند غير المسلمين ، ولكن ما وُجِدَ منها لم يكن شيئاً ذا بالٍ بالنسبة لما جادت به قرائح المسلمين . اللّهم إلا القرنين التاسع والعاشر الميلاديين فإن « جورج سارتون » يقطع بأنهما إسلاميين صرفاً . فجميع الاختراعات والاكتشافات فيهما تولّدت على أيدى علماء الإسلام .

---

(١) انتهى التعريف ملخصاً من كتاب « أثر العلماء المسلمين » ص ١٠٨ - مرجع سبق ذكره .

ويقول « جورج سارتون » : إن اللغات الثلاث - اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية - توارت خلال ذينك القرنين وتقلصت ظلالها . وأن اللغة العربية وحدها كانت خلالهما : الوسيلة الدولية للتقدم العلمى .

أما توزيع أنصاف القرون المشار إليها ونسبتها إلى علماء مسلمين فقد سجلها « سارتون » على النحو الآتى :

بدأ « سارتون » بالعلاَّمة « جابر بن حيان » ونسب إليه النصف الثانى من القرن الثامن . وجابر معروف فى تاريخ العلوم فى أوروبا بأنه عالِم كيماوى . وله فى علم الكيمياء آراء صائبة .

أما النصف الأول من القرن الثامن فقد اكتفى فيه « سارتون » بالحديث عن بغداد وما كان لها من صدارة علمية بفضل تقاطر العلماء المسلمين إليها .

أما النصف الأول من القرن التاسع فقد دعاه بـ « الخوارزمى » وهو عالِم رياضى يقول عنه سارتون : « وكان أثره فى الفكر الرياضى أبعد من أى أثر لأى كاتب آخر فى القرون الوسطى » ومما هو معروف أن « الخوارزمى » كان من مؤسسى علم الجبر على القواعد التى ارتكز عليها الجبر نهائياً .

وكان يعاصره « الكندى » الذى يُنسب إليه ٢٧٠ مؤلفاً فى الرياضيات والفلك والطب وغيرها .

والنصف الثانى من القرن التاسع أطلق عليه سارتون اسم « الرازى » وقد نبغ الرازى فى الطب . ومن أشهر مؤلفاته فيه كتابه « الحاوى » ، وله رسالة فى الجدرى والحصبة كانت أول كشف علمى عن هذين الداءين . وقد تُرجمت إلى اللغات الأخرى أكثر من أربعين مرة خلال أربعة قرون كان آخرها عام ١٨٦٦

وسمى النصف الأول من القرن العاشر باسم « المسعودى » ، وقد نبغ المسعودى فى علمى التاريخ والجغرافيا . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « مروج الذهب » .

والنصف الثانى من القرن العاشر نسبه إلى « أبى الوفاء الفلكىّ » وقد نبغ أبو الوفاء فى علم الرياضيات .

وحفل هذا النصف بعلماء آخرين كـ « الفارابى » المسمى بـ « المعلم الثانى » و « ابن النديم » صاحب الفهرست المشهور .

كما سمى النصف الأول من القرن الحادى عشر باسم « البيرونى » وكان البيرونى فيلسوفاً ورياضياً وجغرافياً ورحّالة . ملماً بكثير من الثقافات الأجنبية .

وكان يعاصره عالمان جليلان هما « الحسن بن الهيثم » . ثم الشيخ الرئيس « ابن سينا » وفضلهما فى مجال البحث العلمى ذائع الصيت .

أما النصف الثانى من القرن الحادى عشر فقد نسبه إلى « عمر الخيام » وهو وإن اشتهر عند العامة بالرباعيات فى فلسفة الحياة والمصير فإنه معروف عند العلماء بأنه من الرياضيين والفلكيين .

ومع بداية القرن الثانى عشر بدأ الأوروبيون يشاركون علماء الإسلام فى ميادين البحث ، ومع هذا يقول سارتون : إن القيادة كانت لعلماء الإسلام . وقد عبَّر عن هذا - بل وأكثر منه - « جيرار الكريمونى » الذى كان يمثل أوروبا علمياً فى ذلك العصر ، إذ يقول :

« إن روح التقدم كانت تنطوى بمقدار كبير على الحكمة فى جمع ثمار الحضارة الإسلامية » .

ومشاركة الأوروبيين لعلماء الإسلام فى مجال الكشف العلمى لم تمنع بعض علماء المسلمين - كما يقول سارتون - من اختصاصهم بالريادة فى بعض مجالات العلم والحضارة مثل : الفلك والرياضيات والنبات والصيدلة وبعض فروع الطب وأهمها طب العيون ، ولسارتون عبارة جامعة فى بيان الفضل الذى أسهمت به الحضارة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية . وفيها يقول سارتون : إن الانتقال من الحضارات الأخرى إلى الحضارة الإسلامية : « يكاد يشبه الانتقال من الظل إلى الشمس المشرقة . ومن عالَم ناعس إلى آخر متفجر بالنشاط » .

هذا غَيض من فَيض من أقوال منصفى الإسلام فى أوروبا ، إن الحقائق القوية الناصعة هى التى أملت عليهم بهذه الاعترافات الرائعة . ومنهم مَن بقى على عقيدته حتى مات ، ومنهم مَن جذبه الإسلام إلى آخر الطريق فاعتنقه ديناً وشرعة .

ومن أقرب الأمثال إلى الأذهان ما ذكرناه من قبل عن « محمد أسد » الذى اعتنق الإسلام بعد أن أتيحت له فرصة دراسته عن قرب . ثم المفكر « جارودى » وقد كان من أقطاب الفكر الشيوعى . والطبيب « موريس بوكاى » صاحب كتاب « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » ، وغيرهم كثيرون .

* * *

● الإسلام فى أوروبا عند الحاقدين عليه :

لن نطيل الوقوف عند هذا الفرع ، بل سنشير إشارات عابرة إلى تأكيد قيام هذه الظاهرة . والسبب أن موضوع هذه الدراسة كله ينصب على بيان المواقف العدائية من أوروبا التى وقفتها خلال القرن التاسع عشر من الإسلام والمسلمين ، ثم اشتد أوارها بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤) وما تزال تمارسها إلى الآن متنقلة من أسلوب إلى أسلوب . لذلك فستكون الصفحات التالية حتى نهاية الدراسة حافلة بصور الحقد والعداء الأوروبى للإسلام وللمسلمين معاً ؛ لأسباب سيأتى ذكرها تباعاً إن شاء اللّه .

وأمامنا الآن حقيقة يجب أن تأخذ مكانها من الظهور أمام القرّاء ، وهى أن الحاقدين على الإسلام - على اختلاف منازعهم وأيديولوچياتهم - معترفون بقوة الإسلام وخصائصه العالَمية ، وهم لا يقلون فى هذا الاعتقاد عن أولئك الذين تحدّثنا عنهم آنفاً باعتبارهم منصفين للإسلام . والفرق بين الفريقين أن المنصفين وقفوا عند حد إظهار مشاعرهم نحو الإسلام ، أما الحاقدون - وهم لا يحصون عدداً - فقد حملهم وقوفهم على عظمة الإسلام أن يُصوِّبوا نحوه السهام ، وقد تعددت أساليبهم فى هذا المجال تعدداً واسعاً ، كما سيأتى تفصيله إن شاء اللّه .

* *

● الغارة على العالَم الإسلامى :

من أبرز النماذج المعادية للإسلام - نظرياً - كتابان شاع أمرهما شيوعاً كبيراً فى البيئات الإسلامية ، وهو كتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » ، أما ثانيهما فهو وإن لم يشتهر اشتهار كتاب الغارة التى سبقت الإشارة إليه ، فإنه مثله فى العداء والكراهية للإسلام والمسلمين معاً . ونقدِّم حديثاً موجزاً عن كل منهما بادئين بكتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » .

اسم هذا الكتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » ومعنى « الغارة » : أى الغزو والفتح . وهدف « الغارة » هذه : إزاحة الإسلام عن الحياة وعزل المسلمين عنه لتتمكن الصليبية العالَمية من تنصير المسلمين . هذا هو الهدف الأول والمباشر لأوروبا من هذا العمل .

ويتكوَّن هذا الكتاب من قرارات مؤتمرات التبشير التى عُقدت فى عواصم وأوقات مختلفة من عواصم العالَم . كما تضمن دروساً أخرى فى تنظيم الإرساليات التبشيرية وإعداد المبشِّرين ووسائل ممارستهم لعملهم فى ديار الإسلام ، ثم الأهداف المقصودة من جهاز التبشير العالمى . وكان أصل الكتاب بحوثاً تتعلق بتبصير المسلمين أصدرتها مجلة العالَم الإسلامى الفرنسية فى عدد خاص من أعدادها باللغة الفرنسية ، وهى إحدى المجلات الغربية التى تعمل فى مجال ما يسمى بـ « التبشير » بين المسلمين لتحويلهم من عقائدهم إلى النصرانية ، وكان يرأس تحريرها « شاتلييه » من عُمَد التبشير فى الغرب آنذاك. وكان ذلك عام ١٣٣٠ هـ . وقد قام بتعريب ما ورد فى العدد المذكور من مجلة العالَم الإسلامى المرحوم الشيخ محب الدين الخطيب ، والمرحوم مساعد اليافى ، وجعلا عنوانه « الغارة على العالَم الإسلامى » .

وهذا الكتاب من الأعمال الجَماعية الطافحة بالحقد على المسلمين والإسلام . وبحسبه أنه يُعتبر خطة عمل للحروب الباردة ضد الإسلام والمسلمين . وتتركز أهدافهم حول المطالب الآتية :

أولاً : تنصير مَن يستطيعون من ضعاف المسلمين شعوباً أو أفراداً . وهذا كان هو المطلب الأهم لهم فى أول الأمر .

ثانياً : تشويه حقائق الإسلام وتشكيك أبنائه فيه إذا لم يمكن تنصيرهم بشكل قاطع .

ثالثاً : وقف المد الإسلامى الزاحف فى آسيا وإفريقيا وبخاصة بين الشعوب « المحايدة » والشعوب الإسلامية غير العربية كأندونيسيا والأفغانستان وغيرهما.

رابعاً : تفتيت وحدة المسلمين حتى لا يعيد التاريخ نفسه كما كان فى صدر الإسلام حيث أسقط المسلمون دولتى الفُرس والروم ، وفتحوا ما شاء اللّه لهم من الأقطار حتى إنهم هددوا أوروبا نفسها بالاجتياح بعد تمكنهم فى شمال غرب إفريقيا ومصر والشام والعراق ثم الأندلس ، أو كما قامت دولة الخلافة « العثمانية » وتمكنت عن طريق الإسلام من توحيد صفوف المسلمين من مختلف الأجناس ، كما تمكنت من التوغل فى أوروبا نفسها وصارت هى القوة الوحيدة المرهوبة الجانب فى العالَم .

وإلى القارئ الكريم مقتطفات من أقوالهم وردت فى الكتاب ، أما الوسائل التى استخدموها فى تحقيق مقاصدهم فسوف يأتى الحديث عنها فى موضع لاحق :

قال أحدهم - وهو المستر « بلس » - يبين خطورة الإسلام وكونه عقبة فى تحقيق مطالبهم :

« إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى إفريقيا ، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا .. » (؟!) .

وللمستر « بلس » - هذا - كتاب عدائى للإسلام دعاه « مشروع التبشير » وقد أعيد طبعه مرة أخرى بعنوان « ملخص تاريخ التبشير » .

وقال أحدهم - وهو المسيو « شاتلييه » رئيس مجلة العالَم الإسلامى الفرنسية - يبين جناحى العمل التبشيرى فى البلاد الإسلامية : « إن لنتيجة إرساليات التبشير فى البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ، ومزية هدم ... » .

ويقصد بمزية الهدم : هدم الإسلام عقائد وأخلاقاً ... !!

ويريد بمزية التشييد : الترويج للنصرانية والعمل على اعتناقها بديلاً عن الإسلام !!

* *

● مجلة الشرق المسيحى :

لم تكن فرنسا وحدها هى التى تصدر مجلة إسلامية لغرض تدميرى . بل تساندها دول أوروبية أخرى فى نفس الاتجاه . فأصدرت بريطانيا مجلة أخرى باسم « مجلة العالَم الإسلامى » وكذلك ألمانيا وسويسرا . ولكن مع اختلاف فى التسمية واتحاد فى الهدف . فألمانيا أصدرت « مجلة الشرق المسيحى » وجعلتها وسيلة ذات خطر فى محاربة الإسلام والمسلمين عن طريق الكلمة الخبيثة . وإلى القارىء الكريم فقرة من مقال صدر فى مجلة الشرق المسيحى الألمانية . طافحاً بالمكر والكيد للإسلام . جاء فى هذه الفقرة ما يلى :

« إن أعمالنا قد ازدادت أهمية بين مسلمى البلغار بنعمة اللّه تعالى الساطعة ... وازدياد أهمية التبشير كان بوجه خاص عقب تأسيس المدرسة الدينية الإسلامية (؟!) ... بقصد مقاومة الإسلام (؟!) ويبرهن لنا على أنه قد أزف الوقت الذى يُزعزَع فيه الإسلام من أركانه (؟!) وينتشر الإنجيل بين الشعوب الإسلامية ... » .

كانت هذه المخاطرات تجرى فى الربع الأول من القرن العشرين ولعل القارىء يربط بين تلك المساعى وما يدور فى بلغاريا الآن من اضطهاد للمسلمين وهدم مساجدهم ودفنهم فى مقابر النصارى وتغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء أخرى ..

* *

● الإسلام قوة الغد العالَمية :

هذا هو الكتاب الثانى الذى أشرنا إليه من قبل . ومؤلفه « باول شمتز » ألمانى الجنسية . والكتاب ضخم يقع فى ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير نقله إلى العربية الأستاذ الدكتور محمد شامة ونشرته مكتبة وهبة بالقاهرة . ومؤلف الكتاب عاش فى مصر (القاهرة) عدة سنوات قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ، وموضوع الكتاب يمكن أن يقف عليه القارىء من خلال الكلمة التى صدَّر بها الناشر الألمانى الطبعة الأولى منه حيث قال ما ترجمته :

« بول اشميد عاش فى القاهرة عدة سنوات ، ويعرف جيداً الأسس التى ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال ، الذى يُعَد أهم مشكلة سياسية فى الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذى يمر عليه الإنسان فى أوروبا بكل بساطة ، وفى غير اكتراث ، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم فى جبهة واحدة معادية للغرب ، بينما الغرب نفسه لا يستطيع سوى أن يعرض تمزقه فى غير حدود تجاه هذه الإرادة الحازمة ، وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجَدِّى من أجل مصلح الغرب وحدها » .

أى أن الكتاب الذى وضعه باول « الإسلام قوة الغد العالمية » وقدَّم له الناشر بتلك المقدمة الموجزة البليغة ، إنما هو كشف عن قوة الإسلام ، وتحذير منها ، فهو - إذن - خطة عمل محكمة يقدِّم من خلالها المؤلف لبنى قومه النصح الخالص الأمين ليقفوا فى وجه الإسلام قبل أن يجذبهم ببراثنه ، ثم يرمى بهم بين فكيه ، وفى الواقع إن المؤلف أصاب أيما إصابة وهو يستعرض عناصر القوة والتمكين فى الإسلام ، فى العقيدة والأخلاق والسلوك ، وفى الموقع الاستراتيجى للرقعة التى يفترشها العالَم الإسلامى على سطح الأرض ، وفى غنى الموارد الطبيعية والبَشرية . ولا نضيف جديداً فى وصف الكتاب أكثر مما قلنا ، ولكننا نقتطف فقرات من كلام المؤلف . ثم نختم الحديث عنه بعبارة ختم بها المؤلف كتابه هى فى الواقع جملة موجزة كل الإيجاز ، ومع هذا فإنها جمعت كل كلمة سبق أن سطرها فى « الكتاب » .

من أبرز الحقائق التى حذَّر « باول » منها أوروبا : عودة الإسلام بكل قواه إلى تولى زمام القيادة والتوجيه عالَمياً ، لأن مؤهلات الإسلام من هذه الناحية لم يصبها الوهن . وهو يعبِّر - أحياناً - عن الإسلام بـ « الشرق » فيقول :

« وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق (الإسلامى) عَوْداً على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة الإسلامية العالَمية فى الصدر الأول للإسلام . وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية . وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون : كيفية استخراجها والعمل على الإفادة منها وستقلب موازين القوى ؛ لأنها (يعنى قوة الإسلام) قائمة على أسس لا تتوفر فى غيرها من تيَّارات القُوَى العالَمية (ص ٣٢٣) .

*

• التفوق العددى فى القُوَى البشرية :

ومن الظواهر الفعَّالة فى ميزان القُوَى الإسلامية التى فطن إليها « باول » وحذَّر منها كل قوى الغرب والشرق المناوئة للإسلام من تلك الظواهر نمو القوى البشرية وتزايدها فى بلاد الإسلام وقد أطال « باول » فى الحديث عنها ، وكان مما قال : « تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الإسلامى إلى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق (الإسلامى) والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بَشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الإنتاج البَشرى الشرق على نقل السُلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود ، وسوف ينجح فى ذلك نجاحاً لا نرى من أبعاده اليوم إلا النذر اليسير » (ص ١٨١) .

*

● مثال من مصر :

وبعد هذا العرض الموجز لخطورة الرصيد البَشرى فى بلاد الإسلام يذكر المؤلف أرقاماً لمعدلات الزيادة كل عشر سنين فى بعض البلاد الإسلامية . ويركز على مصر بالذات ، ثم يأخذ معدّل الزيادة فى مصر ويقوم بعمل إحصائية لما يُستقبل من الزمن خلال ألف سنة قادمة . ويدهش للرقم الذى سيصل إليه السكان فى مصر فى نهاية تلك المدة (١٠٠٠ سنة) فيقول : « وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة أمة تعدادها : ٩٧٣ ملياراً من البشر ، أى أنها سوف تنمو بَشرياً إلى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيّارة الأخرى » (ص ١٨٣) .

هذا .. ولم يفت المؤلف أن يقارن بين زيادة المواليد العرب فى فلسطين ، ومواليد اليهود ، ويتنبأ بأن معدّل زيادة المواليد العرب فى فلسطين مقارَناً بهبوط معدّل مواليد اليهود حيث بلغت زيادة المواليد مرتين ونصفاً على مواليد اليهود . هذه الحقائق جعلت المؤلف يتنبأ بأن هذه الزيادة الملحوظة إنما هى عقبة كأداء أمام آمال الصهيونية العالَمية فى فلسطين (ص ١٨٦) .

فتأمل - عزيزى القارىء - إلى أى مدى بلغت حساسية المؤلف من نمو العناصر المناصرة لعالَمية الإسلام ، وأن الإسلام إذا تُرِك وشأنه ولم تقاومه أوروبا فسيحدث اختلال فى موازين القُوَى العالَمية ، ثم تنتقل السُلطة العالَمية إلى الإسلام مرة أخرى ويعيد التاريخ نفسه ، ثم تعال معى وقِفْ ملياً أمام العبارة التى ختم المؤلف بها كتابه ، إذ يقول :

« إن انتفاضة العالَم الإسلامى صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها ؟! يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ، وينفض النوم عن عينيه . هل يسمعه أحد ؟! ألا من مجيب » ؟! (ص ٣٢٤) .

* * *

• تغليب العداء على الإنصاف :

تقدِّم لنا نموذجان لصدى الإسلام فى أوروبا : نموذج التمدح والإنصاف والاعتراف بالجميل .

ونموذج العداء المستحكم ، والحقد الأسود الدفين .

فإلى أى الاتجاهين استجابت أوروبا يا ترى ؟!

إن الإجابة معروفة . فقد أغمضت أوروبا أعينها ، واستغشت ثيابها ووضعت أصابعها فى آذانها حتى لا تبصر صوت الحق ولا تسمع دويه وهديره .

واستجابت بكل قواها لصوت الكراهية والحقد والانتقام .

هذا هو الواقع . ولكن لماذا اختارت أوروبا هذا الاتجاه وآثرت البغض على الحب ، والعداء على الصداقة ، ونكران الجميل على الاعتراف والوفاء ؟

• الأسباب فى إيجاز :

إن الأسباب التى من أجلها اختارت أوروبا أن تواجه الإسلام بكل ما تملك من وسائل الكيد والدحر ، يمكن إرجاعها إجمالاً إلى سبب واحد هو : الخوف من الإسلام . فقد عرفت أوروبا نظرياً أن الإسلام صالح - بجدارة - لأن يكون رائداً للبَشرية دون أن يضيق بهذه الريادة ، أو يُقصَّر فى أدائها ، وأن المشكلات التى تكدر صفو الحياة لها علاج حاسم فى منهج الإسلام ، فإذا لم تقاوم أوروبا هذا « العملاق » فستُغرب شمسها ويزول سُلطانها .

وإذا كان المعسكران اللذان يتنافسان على قيادة العالَم الآن ، وهما المعسكر الرأسمالى الصليبى ، والمعسكر الشيوعى الإلحادى ، إذا كانا يخاف كل منهما الآخر ، فإن هذا الخوف مصدره هو « القوة العسكرية » لكل منهما ، أما فى مجال المبادىء والقِيَم التى تحكم مسيرة الحياة كلها ، فليس عند أى من هذين المعسكرين ما يخافه الآخر ، فهما كلاهما لا أقول فقيران فى هذا المجال ، وإنما هما لا يعرفان شيئاً قَط فى هذا المجال ، وكل ما يعرفه كل منهما هو ما يتعلق

بالمذهب الاقتصادى لكل منهما . بل إنهما يلتقيان عند أمر مخيف جداً وإن كان المعسكر الشيوعى ضالعاً فى هذا الجانب . فهو يقوم على « الإلحاد » والكفر باللّه وبما وراء الطبيعة ، ويحصر إيمانه بالماديات المحسوسة وكفى !

والمعسكر الاقتصادى وإن لم يعلن - صراحة - الكفر باللّه والقِيَم الإيمانية ، فإن الواقع الذى يسيطر عليه هو تحييد الإيمان وعزله عن مواكبة الحياة . وهو ما عُرِف عندهم بـ « فصل الدين عن السياسية » وإن كان هذا الشعار لا يكفى فى تصوير صلة أوروبا بالدين .

هذا من الناحية النظرية ...

أما من الناحية العملية فقد عرفت أوروبا انتصارات الإسلام قديماً وحديثاً .

أما قديماً .. فقد أشار مؤلف كتاب « الإسلام قوة الغد العالَمية » إلى بصيص فيما سبق أن نقلنا عنه وهو يتحدث عن الصدر الأول للإسلام .

ثم عرفت أوروبا قوة الإسلام إبّان الحروب الصليبية التى لا تزال جروحها تنزف فى مشاعر القوم إلى الآن .

ثم عرفت قوة الإسلام فى أثناء قيام دولة الخلافة العثمانية وانتصاراتها المذهلة على أوروبا نفسها .

فالإسلام « أمس » أثبت أنه إذا أتيحت له الظروف لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، أو ينال منه .. لذلك كله فإن أخشى ما تخشاه أوروبا أن تتاح الفرصة من جديد لعودة الإسلام ، وصارت كل القوى تحذر عودته .

الرأسمالية الصليبية ، والشيوعية الإلحادية ، والصهيونية العالَمية ، هذه القوى الثلاث لا تخشى بعضها بعضاً وإنما هى مجتمعة ومتفرقة لا تخشى إلا « الإسلام » - أو العملاق النائم - كما يحلو لكثير من مفكريهم وخبرائهم

أن يصفوه . هذا هو سبب الأسباب فى تغليب أوروبا جانب الحقد والعداء على جانب الإنصاف والاعتراف بالجميل . وكان لا مناص من المواجهة مهما كلّفتها من ثمن . ثم بدأت أوروبا العمل ، وعلى محاور مختلفة . إنها لم تدعْ وسيلة رأت أنها مفيدة لها فى القضاء على الإسلام أو تقليل الأضرار المتوقعة منه على أوروبا ، إلا وسلكتها فى عزم وإصرار وكان من أبرز المحاور فى هذا المجال : « الغزو العسكرى » .

* * *